الفصل الرابع

تأثير العقيدة والبيئة والثقافة
على
تصميم الحديقة الاسلامية

١- الأبعاد الفكرية للحديقة الاسلامية

٢- الوصف القرانى لجنات اليوم الاخر

٣- تأثير السنة النبوية على تصميم الحديقة الاسلامية

٤- الأبعاد الحضارية للحديقة الاسلامية

٥- الأبعاد البيئية للحديقة الاسلامية

٦- الأبعاد الجمالية للحديقة الاسلامية

٧- تساؤلات تاريخية

obeikandi.com

يلاحظ القارئ المهتم بتاريخ الفنون الإسلامية أن المكتبة الأوروبية والأمريكية مزدحمة بعشرات الكتب التى تتناول موضوع الحديقة الإسلامية، والكثير من هذه المؤلفات يمكن تصنيفه تحت مظلة كتب الرحلات أو كتب التاريخ والجغرافيا الحافلة بالصور والخرائط والوصف التفصيلى للمدن والحدائق والبساتين الإسلامية حول العالم.

وبالرغم من كل هذا، فقلما نجد من بين هؤلاء المؤلفين من يتناول الأبعاد الروحية والثقافية لتصميم هذه الأماكن، وحتى من يتطرق منهم لمثل هذه المؤثرات فقد تميزت معالجته بالسطحية أو الخلط وعدم الدقة.

والواضح من قراءة هذه المؤلفات أن اللغة والدين كانا أضخم العوائق أمام هؤلاء الباحثين؛ لأن آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ تتطلب تمرسًا باللغة العربية، وهى لغة ثرية بمصطلحاتها، ومركبة فى قواعدها، وعميقة فى تراثها، وواسعة فى تعبيراتها الأدبية، ودقيقة فى مفرداتها العلمية.

ومع ذلك، فقد كانت هناك استثناءات قليلة مثل الكتاب الذى نشره فى عام ١٩٥٧ المؤلف الفرنسى «جورج ماريز ـ Georges Maraise» تحت عنوان «Melanges d'Histoire et d'Archeologie de l'Occident musalman» وكذلك الكتاب الذى نشرته جامعة هارفارد الأمريكية عام ١٩٧٦ تحت اسم «الجنة الإسلامية ـ The Islamic Garden» والذى ضم فصلًا كاملًا عن الأبعاد الدينية لحدائق الإسلام التاريخية، وكتب هذا البحث المؤلف البريطانى «جيمس ديكى ـ James Dickie».

١- الأبعاد الفكرية للحديقة الإسلامية

الحديقة الإسلامية ـ مثلها مثل كل حدائق الأمم البشرية الأخرى ـ يرسمها خيال الفنان المبدع، ويحتضنها الإنسان العادى كمأوى وملجأ يعتكف فيها بعيدًا عن هموم الدنيا، ويهرب إليها من ضجيج المدينة وحرارة الصيف وغبار الطريق وزحام الحياة.

وبالرغم من هذا التشابه فى الاستعمال البشرى المعتاد فمن الصعب على غير المسلمين فهم العمق الكامل للإبداع الفكرى أو العمق الكامل للمتعة الروحية والمعنوية للحديقة الإسلامية عند الإنسان المسلم.

وقد توصلت إلى هذا الاقتناع لأنه بدون معرفة العقيدة الأساسية فى القرآن الكريم والسنة النبوية فيما يتعلق بالحساب والعقاب والجنة والنار، يصبح من الصعب على الزائر أن يدرك أو يفهم مثلًا: لماذا انقسمت الحديقة إلى أربعة أقسام؟ أو لماذا حرص المصمم على إدخال وتغليب عنصر المياة؟ أو لماذا خلت هذه الحدائق فى أغلب الأحيان من أى تماثيل لبشر أو كائنات حية أخرى؟ وبدون فهم للرموز والتشبيهات والتوريات فى القرآن والسنة وقصائد الصوفيين عن جنات الفردوس، أو كتابات الغزل عند شعراء العرب وفلاسفة الأندلس وبلاد الفرس عن المدينة الفاضلة، أو عما يتخيله الفنان المسلم ويتوقعه كل مسلم فى رياض الآخرة الموعودة، فقد يكون مستحيلًا فهم وتقدير الإنجازات الفنية الباهرة للحدائق الإسلامية عبر التاريخ.

وتلزم هنا الإشارة إلى أنه بينما تمخضت قريحة شعوب الحضارات القديمة منذ مصر الفرعونية وبابل وآشور عن نموذج جنات الآخرة كامتداد للحياة على الأرض، فقد قدم الفنان المسلم حديقة أخرى متميزة عن كل ما هو معروف أو مشهود أو ملموس؛ اقترابًا من فكرة (**لا عين رأت ولا أذن سمعت**).

ونظرًا لاعتقاد المسلمين المطلق أن آيات القرآن هى حقًّا تنزيل سماوى ووحى مقدس، فقد تشكل الاقتناع الكامل عند الفنان المسلم أنه إلى جانب الجهاد فى هذه الدنيا لنيل ثواب جنات الخلد السماوية، فإن عليه أيضًا أن يحاول محاكاة صورتها ـ كما توحى به آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ ـ كجزء لا يتجزأ من مهمته الإنسانية السامية فى عمارة الأرض. وقد أكد البروفيسور «آيان ماكهارج ـ Ian McHarg» فى كتابه المشهور «التصميم مع الطبيعة ـ Design with Nature» على هذه النقطة الخاصة بتأثير تعاليم الدين على اهتمام وعناية الشعوب المسلمة فى الماضى بإنشاء الحدائق والبساتين قائلًا: «وكان تركيز المسلمين على تنسيق وصيانة الحديقة واضحًا أن له جذور فى تعاليم دينهم؛ حيث يعتقدون أن الإنسان هو الخليفة المسؤول عن الحديقة، وأنه قادر على

عمل البساتين من الطبيعة المحيطة، وأن الرجل الحكيم باستطاعته إبداع الجنة فى خياله، وأن مهارة الفنان قادرة على إنجازها فى الأرض».

وصورة جنات الفردوس ورياض الخلد فى خيال الفنان المسلم مليئة بالرموز، وغارقة فى الجمال، ومشعة بالأحلام، وتؤدى إلى باقة من التفسيرات المختلفة وإلى تصورات شتى فى ذهن كل زائر. وتنبثق هذه الباقة من علامات ورموز حدائق الآخرة لمصطلحات قرآنية متوهجة ملهمة ومليئة بالإيحاءات مثل سدرة المنتهى، وجنة المأوى، ونهر الكوثر، وجنات عدن، وجنات وعيون، وحدائق ذات بهجة، وجنات تجرى من تحتها الأنهار، وكثير غيرها من المفردات والعبارات الرصينة.

٢- الوصف القرآنى لجنات اليوم الآخر

ويأتى ذكر الحديقة تحديدًا ومعناها الذى نعرفه فى حياتنا اليوم فى مواضع عدة من القرآن والحديث، ويذكر القرآن الكريم فى أكثر من سورة تصويرات رائعة للحدائق المثالية، فهى من وجهة نظر الإسلام هى العطاء والمأوى ونهاية المطاف للمؤمنين فى الدار الآخرة.

ورغم أن تصويرات القرآن الكريم تعطى فقط لمحات وومضات عن مشاهد هذه الجنة الموعودة، إلا أنها كانت دائمًا مصدرًا أساسيًا للإلهام الفنى لغالبية مصممى الحدائق الإسلامية عبر التاريخ.

فنجد مثلًا فى سورة الإنسان آيات تعطى لمحات عن جنات عدن:

* ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

ونجد فى موضع آخر تصويرًا لخصائص المناخ فى هذه الجنات:

* ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣]

ويتحدث القرآن فى آية أخرى عن خصائص أشجارها وثمارها:

* ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤]

أما فى الآية الستين من «سورة النمل» فيشير القرآن الكريم إلى التأثير النفسى لهذه الحدائق:

* ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ [النمل: ٦٠].

وفى الآية الثانية والثلاثين من سورة النبأ يشير القرآن الكريم إلى الاستعمال الجمالى والانتفاعى لجنة الخلد:

* ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا﴾ [النبأ: ٣١، ٣٢].

وفى الآيات من السابعة والعشرين إلى الواحدة والثلاثين من سورة عبس يعدد القرآن الكريم أنواع النباتات فى هذه الجنات الموعودة:

* ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١﴾ [عبس: ٢٧-٣١].

والجنة التى هى مآل المؤمنين فى الدار الآخرة ومستقرهم الأبدى هى الحديقة الكبرى. وقد جاء ذكر لفظ الجنة فى القرآن الكريم مائة وست وأربعين مرة، بما فى ذلك (جنتك، وجنته، وجنتى، وجنتان، وجنتين، وجنـات).

ونجد فى سورة الرحمن وصفًا رمزيًّا رائعًا لهذه الجنات الإلهية الأزلية، وتركيزًا على جنات أربعة لفئتين مختلفتين من المؤمنين؛ حيث يقول الله سبحانه وتعالى فى البداية:

﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

حيث يختص بالذكر أولًا فريقًا ذا مرتبة عالية، أشارت إليهم سورة الواقعة بالمقربين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١١ - ١٢]، ويصف القرآن هاتين الجنتين بأنهما يتمتعان بمناخ مريح ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾ [الرحمن: ٤٨] أى أغصان وارفة الظلال.

ثم يذكر نوعية العنصر المائى:

﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠]

ويشير إلى تصنيف العنصر النباتى:

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]

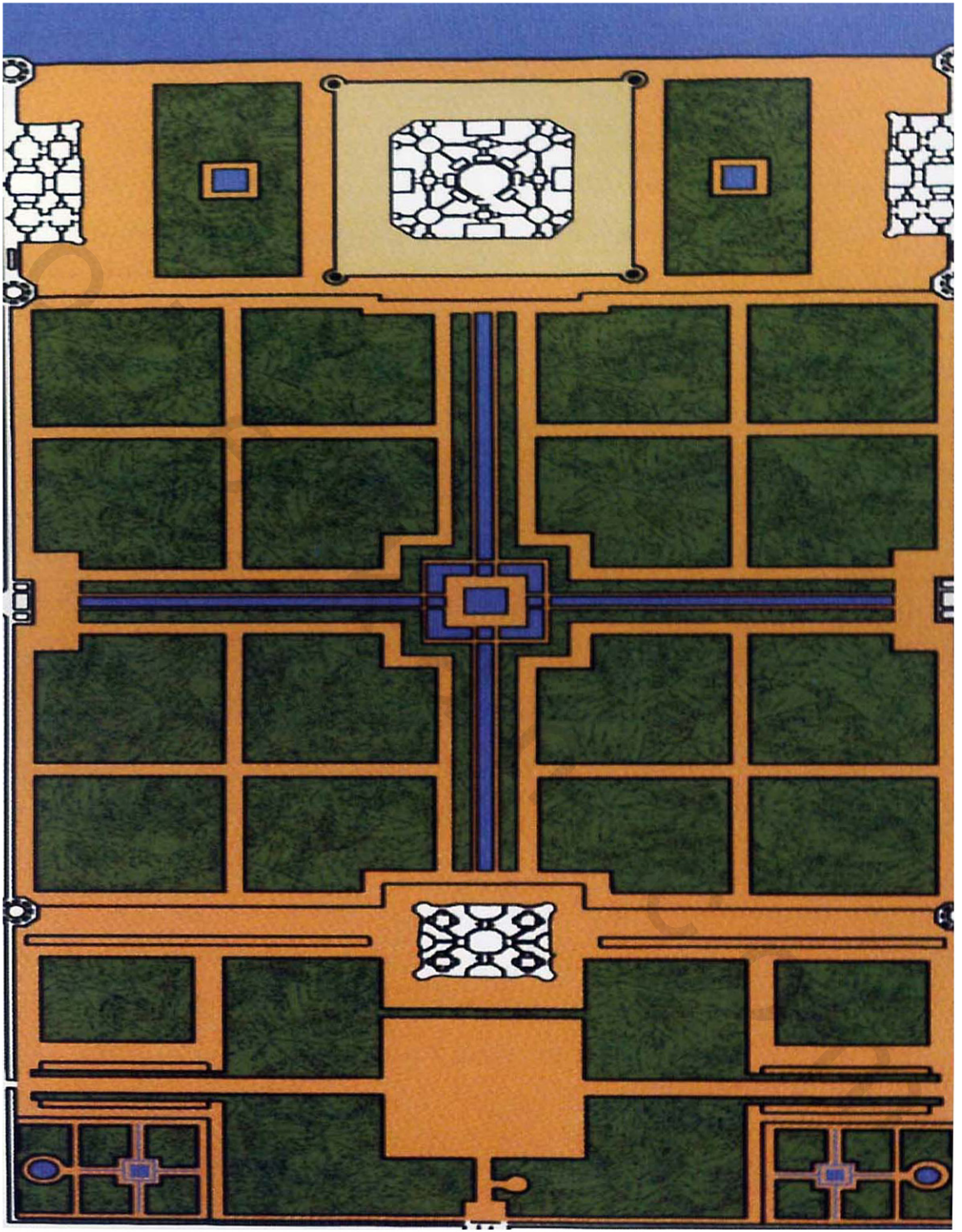

التصوير القرآنى للجنة

كان وصف القرآن الكريم لجنات الآخرة، والإشارة إلى تقسيمها إلى أربع حدائق من العوامل المؤثرة على تخطيط بستان شالامار باغ

ثم يستطرد القرآن الكريم فى السورة نفسها فيذكر جنتين أخريين ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٢]، وربما تُخصص لفريق آخر، أشارت لهم سورة الواقعة بأنهم أصحاب اليمين ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٩٠ - ٩١].

ويصف لون الأشجار الغامق من غرازة الرى:

﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٤].

ثم يصف أشجارهما:

﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن: ٦٨].

أما فى سورة محمد فيصف القرآن الكريم عناصر الجنة وأنهارها وأنواع الشراب المتوفر فيها وما يتميز به من لذة ونقاء وطزاجة وصفاء ومتعة:

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [محمد: ١٥].

ويضيف القرآن فى سورة الواقعة لقطات جديدة لجنات الفردوس الخاصة بأصحاب اليمين حيث يقول:

﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ [الواقعة: ٢٨].

حيث تتحول شجرة النبق المعروفة بأشواكها فى الدنيا إلى شجرة تعطى ثمارها ولكنها منزوعة الشوك.

وفى الآية التالية يضيف القرآن إلى قائمة نباتات جنة الخلد شجر السنط المعروف فى إقليم الحجاز، ولكنها فى الآخرة منضودة ومعدة للتناول بلا كد ولا مشقة التسلق لجمع ثمارها:

﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ [الواقعة: ٢٩].

ثم تستطرد السورة نفسها فى وصف مناخ جنات أصحاب النعيم:

﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ [الواقعة: ٣١].

ومن المهم أن نتخيل أن من وجهة نظر الإنسان البدوى الذى ترعرع فى جزيرة العرب بصحاريها وقفارها، كيف أثرت هذه الصور المثالية وعملت كالشرارة لخياله وأشواقه، وكمصدر إلهام له فى كل أعماله الفنية مثل القصيدة، والسجادة، والحديقة، وقطعة الأثاث، أو لوحة الخط العربى.

ومن خلال مقارنة هذا الوصف التفصيلى لجنات الفردوس بالكثير من حدائق الإسلام التاريخية يستنتج الباحث سر تكرار تقسيم هذه الحدائق إلى أربعة أجزاء، ويتفهم سبب الإسهاب فى استعمال عنصر الماء من خلال نافورات وأحواض وقنوات، ويدرك لماذا خلت معظم الحدائق الإسلامية من تماثيل للبشر أو لأى مخلوقات حية عمومًا.

ويتضح تأثير كل هذه الآيات القرآنية فى الفنون الأخرى حينما نشاهد بعض الرسومات الفارسية التى صاحبت القصائد الشعرية فى ديوان «خارجو كيرمانى» بالذات، وهو أحد شعراء القرن الرابع عشر. كما نجد أيضًا تأثير وصف القرآن لجنات الخلد واضحًا فى تصميمات السجاد العجمى القديم، وبلا شك فى أمثلة الحدائق الإسلامية الباقية فى بعض الأقاليم الإسلامية التى حافظت على طابع التصميم الأصلى لآثارها.

أما تأثير لغة القرآن الكريم على الأدب والشعر اللذين يتغنيان بالطبيعة والحدائق والبساتين، فقد بلغا ذروة وضوحهما عند شعراء الأندلس فنجد أحدهم مثل ابن زمرك يقول فى قصيدته «هب النسيم»:

هب النسيم على الرياض مع السحر ... فاستيقظت فى الدوح أجفان الزهر
ورمى القضيب دراهمًا من نوره ... فاعتاض من طل الغمام بها درر
نثر الأزاهر بعدما نظم الندى ... يا حسن ما نظم النسيم وما نثر
قم هاتها والجو أزهر باسم ... شمسًا تحل من الزجاجة فى قمر

ثم تتصاعد موجة الاقتباس والاستعمال للمصطلحات القرآنية فى نهاية القصيدة حين يستطرد فى وصف محتويات وعناصر الفردوس فى خياله وأحلامه:

حيث الهديل مع الهدير تناغيا ... فالطير تنشد فى الغصون بلا وتر
والقضب مالت للعناق كأنها ... وفد الأحبة قادمين من السفر
متلاعبات فى الحلى ينوب فى ... وجناتهن الورد حسنًا عن خفر

والنرجس المطلول يرنو نحوها ... بلواحظ دمع الندى منها انهمر
والنهر مصقول الحسام متى ترد ... درع الغدير مصفقا فيها صدر
يجرى على الحصباء وهى جواهر ... متكسرًا من فوقها مهما عثر
هل هذه أم روضة البشرى التى ... فيها لأرباب البصائر معتبر

٣- تأثير السنة النبوية على تصميم الحديقة الإسلامية

وبالإضافة إلى آيات القرآن الكريم نجد أن رسول الله ﷺ قد ذكر فى كثير من أحاديثه الشريفة وصفًا مسهبًا لجنات اليوم الآخر ورياض الصالحين بتضاريسها وطبيعتها وسكانها. وكما هو متوقع أصبحت آيات القرآن وأحاديث الرسول هى المصادر الأساسية لتصور جنات اليوم الآخر، ومن هذا التراث كان النبع الأساسى لأكثر أفكار تصميم الحديقة الإسلامية للحياة الدنيا خلال عصور الازدهار.

ويعتقد بعض المؤرخين أن النافورة أو البئر أو أى عنصر مائى آخر، الذى يتوسط صحن الدار أو البستان المفتوح فى أغلب الأحيان هو تعبير رمزى عن الحوض المذكور فى السنة النبوية كأحد معالم جنات النعيم فى الحياة الآخرة.

ولا شك أن أكثر الأحاديث الشريفة أهمية فى دراستنا هو «**بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة**» حيث يقف الإنسان مرهف الحس والفنان الماهر مبهورًا أمام هذه الكلمات المتدفقة بظلال هادئة حين تتحول الحقيقة والمكان الملموس والمادة الأرضية المحسوسة إلى مفهوم غيبى فى العالم الآخر ونبوءة ساطعة من عالم الواقع. ورغم إدراك مصمم الحديقة الإسلامية أن تلك الروضة التى هى من رياض الجنة بنص الحديث النبوى هى حالة فى قلب وروح المؤمن الذى يزور مسجد الرسول بالمدينة المنورة، لكنها تثير حلمًا فى ذهنه وذهن كل فنان يسعى لعمارة وتحسين الأرض، وتلهمه رؤيته من خلال النموذج الإلهى لرياض الجنة كما تناولته آيات القرآن فى أكثر من موضع كما أوردنا من سور الإنسان، والنمل، والنبأ، وعبس، والرحمن، والواقعة، ومحمد.

ونستدل مما سبق أن ما بهر الباحثين والمؤلفين الغربيين فكتبوا واستفاضوا فى وصفه وتحليله عن الحديقة الإسلامية تحت مظلة الإبداع المعمارى ومهارة التصميم

ودقة الصنعة، شيء منطقى واستنتاج عقلانى ولكنه ناقص ومحدود الرؤية؛ إذ يتجاهل أو يغفل عن فهم تأثير الثقافة المتميزة التى تنفرد بها الأمة الإسلامية والموروث الحضارى التى تحمله.

ولا شك أن عقيدة التوحيد بالذات، وما يترتب عليها من الإيمان ليس فقط بوحدة الخالق، بل بوحدة الخلق ووحدة الحقيقة، كان لها أبعاد عميقة فى ذهن الفنان المسلم الذى أدرك بفطرته ودينه وثقافته أن الله هو الخالق الذى أبدع هذا الكون، ووضع له نواميس دقيقة وقوانين ثابتة كى تكتمل المنظومة وتستمر إلى يوم القيامة.

٤- الأبعاد الحضارية للحديقة الإسلامية

كان الشرق دائمًا مهدًا للحضارات الأولى والإمبراطوريات القديمة. وعند ظهور الإسلام وبعد أن دخلت الجيوش الإسلامية شتى بلاد الشرق العربى وفارس وشمال إفريقيا، تأثر الأهالى بطبيعة الدين الإسلامى السمحاء، ودخل الكثيرون من أبناء وقواد هذه البلاد فى الدين الجديد، واختلط الإنسان العربى بشعوب أخرى فى رحاب الدولة الإسلامية، واحتوت هذه الدولة الجديدة تحت لوائها كل هذه الحضارات. ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد أن بعض هذه الأقاليم كان ذا باع فى حقل الحدائق مثل دولة بابل وفارس، أو له علم ودراية بشؤون الرى وزراعة الأرض مثل حضارات مصر والعراق، أو له خبرة طويلة فى تطوير الواحات الخضراء فى قلب البيئة الصحراوية كما هو الحال فى إقليم شمال أفريقيا وحضارة قبائل البربر.

وبمرور الوقت، انصهرت تدريجيًّا كل هذه الخبرات الفنية والهندسية لتقدم للإنسانية جمعاء حضارة متكاملة رفيعة ذات شخصية متميزة قائمة على أصالة تاريخية وفكر عميق ملتزم بروحانيات وأخلاق الإسلام الحنيف، وتهدمت الحدود الإقليمية وتلاشت رويدًا رويدًا بين البلدان الإسلامية، وأصبح الطريق مفتوحًا للأفكار والتجارة والأفراد بين حدود الهند والصين فى أقصى الشرق، إلى حدود أسبانيا وجبال فرنسا فى أقصى الغرب.

ومن خلال هذه المنظومة الإنسانية الجامعة ظهر الفن الإسلامى نسيجًا من خيوط متنوعة وخليطًا من مشارب وأصول مختلفة ومزيجًا من أنماط متباينة، وكانت هذه

الشعوب جميعها لهـا عراقة فى الفن وعطاء فى الثقافة وإبداع يشهد بمكانة الفنون والآداب لديها، ومن جانب آخر فتشير الوثائق التاريخية والآثار الباقية أن الفنانين فى عصور ازدهار الدولة الإسلامية قد تمكنوا من الإبداع الفنى من خلال إطـار عقيدتهم السمحاء وبرداء وعبق محلى تناسب خصائص كل إقليم ومزاج كل شعب ويبدو ذلك جليًّا فى تميز الحدائق الإسلامية فى بلاد الأندلس ودولة فارس وشبه القارة الهندية، وكذلك تميز إنتاجها الفنى الآخـر من سجاد وأثاث ومصنوعات فضية ونحاسية وأعمال جص وفسيفساء.

واهتمام الإسلام بالفن ناتج عن اعترافه به كحاجة طبيعية روحية فى الإنسان. ومن المعروف أن كل إنسان فيه قدر من الميول الفنية، وهذه الميول تعبر عن نفسها فى مظاهر مختلفة وإشباعها ضرورى، وإلا شعر الإنسان بالكبت والملل. وقد حث الرسول الكريم ﷺ فى أكثر من موضع على العناية بالقيم الجمالية وتشجيعها فى الحياة اليومية عندما استفسر أحد أصحابه عن رأى الإسلام فى شغف المرء بطيب الملبس والمسكن، فكان رده: «**إن الله جميل يحب الجمال**».

ولذا يشير الأستاذ محمد قطب فى كتابه «منهج الفن الإسلامى» إلى أن الفن الإسلامى تستحوذ عليه فكرة الجمال التى تتتبعه فى كل شىء وفى كل معنى فى هذا الوجود. والجمال فى الإسلام يقصد به المعنى الواسع الذى لايقف عند حدود الحواس الخمسة، ولا ينحصر فى قالب مادى؛ ولذا يشمل جمال الكون بما فيه من نجوم وشموس وأقمار، وجمال الطبيعة بما تحتويها من جبال وأنهار وبحار وسهول ووديان، وجمال المشاعر وما تجمع من مبادئ الحب والخير والعطاء والإيثار، وجمال القيم وما تحفل به من أفكار وأنظمة ومبادئ عليا، وجمال البساتين وما تجمع من أشجار وثمار وأزهار وطيور وعطور وأضواء وظلال.

ولا شك أن مثلها مثل الفنون الأخرى كالعمارة والنحت والشعر، فنجاح استعمال الرموز فى تصميم الحديقة الإسلامية يعتمد بصورة أساسيـة على القدرة الفكرية، والإدراك الحسى والتذوق الفنى لزوار ورواد المكان.

وعمومًا فالتذوق الفنى لأى عمل فنى لا يقتصر على دغدغة الحواس، بل يجب أن يمتد ليلمس احتياج النفوس للبعد الجمالى والروحى ثم يعلو ليخاطب عقل وبصيرة الإنسان.

صحن الأسود بقصر الحمراء

يختلف علماء تاريخ الفن فى ظاهرة وضع تماثيل مجسمة. وهى ظاهرة نادرة فى الحدائق الإسلامية، ويعتقد المؤرخون أن هذا من تأثير الجالية اليهودية بالأندلس.

٥- الأبعاد البيئية للحديقة الإسلامية

يشتمل العالم الإسلامى على بلاد يقع معظمها فى بيئة صحراوية أو شبه صحراوية. ويتميز مناخ الصحراء بأكثر من ميزة تؤثر تأثيرًا مباشرًا على تصميم الحدائق خاصة وتخطيط المواقع عامة. فمناخ الصحراء حار جاف، وإشعاع الشمس المباشر كثيف ومتوهج، والسماء صافية وخالية من السحب لأيام طويلة على مدار السنة، ولكن الزوابع الرملية وتجمعات الغبار تحدث بصفة دائمة تقريبًا. أما الرياح فهى ضعيفة فى الصباح وترتفع سرعتها وقت الظهيرة وتصل أقصاها فترة العصر وما بعد العصر. أما تضاريس الأرض فغالبًا مستوية وتربتها السائدة رملية، وقلما نجد تغيرات ملحوظة فى أشكال أسطح الأرض، أو فى أنواع الأشجار وتغيرها الموسمى. وقد كان الرد المنطقى لتهذيب ومعالجة هذه البيئة الرتيبة الخشنة هو محاولة تقليد الفطرة التى أعطت الواحات الخضراء وسط القفار الصحراوية الممتدة. وهكذا بدأ مصمم الحدائق الإسلامية فى إنشاء أمثلة مصغرة لهذه الواحات الخضراء فى شكل حدائق خاصة ملحقة بالبيوت أو رياض ملحقة بالقصور وحدائق عامة تابعة للمساجد والمدارس والمبانى العامة، وميادين ومساحات للأسواق فى القرى والمدن.

ومن المثير لانتباه الكثير من المؤرخين أن نفس البيئة الصحراوية التى أثرت بخشونتها وقسوتها فى الإنسان العربى فبرز فى التاريخ شديدًا ومحاربًا لا يقهر، هى نفسها البيئة التى أثرت برقة أصباحها وروعة أصائلها وسحر لياليها، وتباين خضرة نخيلها مع ذهب الرمال وصفاء المياه فى واحاتها، فأنتجت كل هذه الظواهر الطبيعية من نفس المحارب الشديد البأس شاعرًا وأديبًا وفنانًا مبدعًا لا يحل بأرض إلا عمرها بقصور وحدائق وجعل أهلها عشاقًا للعلم والفن والإبداع والجمال.

٦- الأبعاد الجمالية للحديقة الإسلامية

كانت زيارة الحدائق والبساتين خاصة عاملًا مؤثرًا يلهب أحاسيس الأدباء لكتابة الشعر، وكان افتتاح حديقة جديدة عبر تاريخ الدولة الإسلامية مناسبة متميزة للتغزل فى الحديقة وصاحبها ومن قام بتصميمها، ما بين فنان وبستانى وعالم نبات وعامل زراعة.

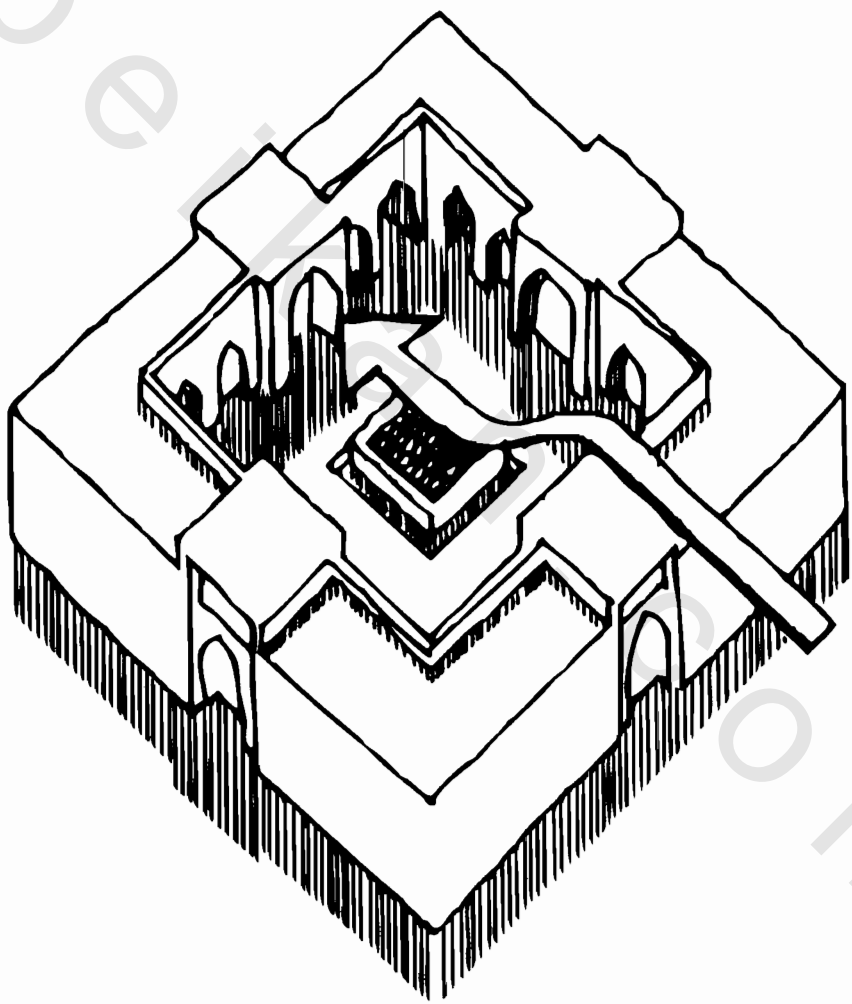

حديقة الصحن ومناخ الصحراء

يعتبر هذا النوع ردًا منطقيًا لخشونة مناخ الصحراء إذ تستغل أجنحة المبنى لحماية الفناء من الزوابع الرملية، إلى جانب توفير مناطق ظليلة من أشعة الشمس المتوهجة فى أنحاء الصحن.

وقد ازدحمت أدبيات المسلمين من شعر إلى نثر بكتابات عن الحديقة ومميزاتها، بل واستخدم الكثير من الأدباء أوصافها فى التغزل فى جمال الحبيب.

وتحولت حديقة صحن الدار بالذات إلى المكان الأمثل للمحب الولهان فى لحظات عشقه، وإلى المآوى المفضل للمحب الخائب فى لحظات هربه وأسفه.

ونظرًا لتميز الممالك الإسلامية فى الأندلس بوجود طبقات مثقفة واسعة وأعداد كبيرة من الفئات المتعلمة، فقد ارتفع فن تصميم الحدائق الإسلامية إلى آفاق راقية ومتقدمة للخطاب الجمالى من حيث المضمون والقوالب الفنية، فعلى سبيل المثال نجد فى صحن الأسود الشهير بقصر الحمراء بغرناطة أبياتا من قصيدة مشهورة للشاعر ابن زمرك، والأمر الملحوظ أن هذه الابيات المختارة بما فيها من تشبيه وتورية ومضمون عام تتناسب مع التشكيل الفنى للصحن وتتكامل معه كجزء لا يتجزأ من الإحساس العام الذى يشع من هذا المكان بشخصيته الفريدة. ولا شك أن هذا التكامل بين الشعر وتصميم الفراغ المفتوح هو ما دعا الباحثين إلى استنتاج أن أهل القصر وزواره كانوا على دراية واسعة بالفنون والآداب، ولهم قدرة على تذوق القصائد الشعرية بصفة خاصة.

أما فى شبه القارة الهندية، فنجد على أحد جدران حدائق «شالامار» بيت شعر فارسى مشهور يقول:

إذا كان هناك فردوس على الأرض فإنه موجود هنا إنه موجود هنا

وقد استفاض المستشرقون البريطانيون فى وصف وشرح هذه الحدائق بالذات، فقد أشار «بروكس ـ Brookes» على سبيل المثال ـ فى تحليله الدقيق لها إلى أنها من أحسن الأمثلة للحديقة التى ترجمت بنجاح بعض الأفكار الجمالية والمعمارية مثل فكرة «القصر بدون سقف» أو فكرة «جنة الله فى الأرض».

وكما ذكرنا فى الفصل الأول فقد كان لشيوخ وأقطاب الصوفية صولات وجولات فى قرض قصائد الشعر المتغنية بجنات يوم القيامة وروائع الفردوس المنشود، أو كتابات نثرية تتأمل عناصر الطبيعة، فمثلًا نجد فى الكتاب الرابع من مثنوى مولانا جلال الدين الرومى تحت عنوان «قصة الصوفى الذى جلس فى الروضة ورأسه على ركبتيه فى حال

المراقبة فقال له رفاقه: ارفع رأسك وشاهد الحديقة والرياض والطيور وآثار رحمة الله تعالى» عبارات متوهجة بعشق الطبيعة ومحاولة فهم أسرارها وكشف أغوارها مثل:

ـ البساتين والخضرة فى الروح، وما هو خارج الروح صورتها كما تكون فى الماء الجارى.

ـ إنه خيال البستان فى المـاء الذى يصيب بالاضطراب هكذا من لطف الماء.

وكما هو معروف تاريخيًّا، فقد ولد الرومى عام ١٢٠٧م فى بلدة بلخ بأفغانستان التى كانت ولاية تابعة للإمبراطورية الفارسية، وقد هاجرت عائلته إلى تركيا عند هجوم جحافل التتار على أفغانستان، ولمع اسمه عندما ألف كتابه المشهور وباكورة إنتاجه والمسمى «أعمال عن شمس التبريزى»، وفى شطحة متوهجة من شطحاته، يتغنى الرومى برموز الجمال كما يراها من خلال البيئة الطبيعية قائلًا:

أنت الماء، ونحن النبات

أنت الامتلاء، ونحن الخواء

أنت المتكلم، ونحن أصداء أصواتك المختلفة

أنت البحث، لماذا لم يعثر علينا بعد؟

وظلت الحديقة مصدر إلهام للشعراء إلى يومنا هذا؛ حيث نجد الشـاعر الباكستانى الشهير محمد إقبـال فى ديوانه «جنـاح جبريل» ينشد للزهور والبساتين والشمس والندى قائلًا:

يسـوق للزهـر أنسـامًا تُهيّـجهـا ... فيطلق الزهـر أنغام البسـاتين

للشمس من نوره طوق يزينها ... وللندى نسب من حوره العين

وفى قصيدة أخرى من الديوان نفسه يحاول تعريف ماهية الفردوس المنشود فيقول:

ليس فى الـفـردوس ذكر ... لـكـهـوف وصـوامـع

إنما الفردوس فيض الحب ... مـن صـدر الجـوامـع

٧- تساؤلات تاريخية

ما زال باحثو علم تاريخ الفنون الإسلامية حائرين أمام إمكانية الجزم بميعاد ومكان تأثير فكرة جنات الخلد، وكمثال يحتذى به فى تصميم الحدائق والبساتين الإسلامية، ومع هذا فمن الممكن القول إن بداية الاهتمام بإنشاء حدائق حول مقابر أمراء وملوك دولة الإسلام فى الأندلس كان أحد العوامل التى أضافت الأبعاد الدينية والروحية على ساحة الفكر وأمام الفنان المسلم عند تصميمه لهذه الحدائق.

ولذا يميل بعض المؤرخين للاعتقاد بأن بداية التأثير الروحى الواضح للقرآن والسنة على تصميم الحدائق بدأ فى أسبانيا، وبالذات بعد سقوط مدينة قرطبة فى أيدى الفرنج وانقسام الدولة الإسلامية فى الأندلس إلى دويلات صغيرة فى المدن الكبرى المعروفة، مثل غرناطة وطليطلة وأشبيلية.

وقد اعتاد الأمراء الأمويون أن يوصوا بدفن جثمانهم فى مقبرة داخل قصر الإمارة فى حديقة كانت تسمى تقليديًّا بالروضة، ومن الملحوظ أن شعوب دول شمال أفريقيا ما زالوا حتى يومنا هذا يسمون المقبرة «الروضة»، ويعتقد الكثيرون أن عادة دفن الأمراء داخل قصورهم سادت فى ذلك العصر تيمنًا واقتداءً بدفن الرسول ﷺ فى صحن داره بالمدينة المنورة، والتى يطلق عليها عامة المسلمين «الروضة الشريفة» إلى الآن.

ومن الأمثلة المعروفة بالأندلس هى روضة قبر الوزير أبى مروان الزحالى الذى أمر فى وصيته بوقف حديقته كجزء من الأوقاف الإسلامية بعد دفنه بها وإقامة ضريح له فيها، كما أوصى بدفن صديقه الشاعر ابن شهيد تعبيرًا عن صحبتهما فى الحياة والممات.

وقد كتب ابن شهيد وصفًا دقيقًا وشاعريًّا عن هذه الحديقة وما تحمله من رموز ومعانٍ له ولصديق عمره أبى مروان الزحالى.

ويجب الإشارة إلى أن بعض علماء تاريخ الفنون من أمثال «دى. فيرتشيلد رجلز ـ D.Fairchild Ruggles» يعتقد أن فكرة استيحاء الفردوس المنشود من خلال التصوير القرآنى فى تصميم حدائق الأندلس لم يتم تطبيقها حتى القرن العاشر، وفى رأيها أن الحدائق فى القرن الثامن والتاسع كانت حدائق دنيوية للترويح والمتعة فى الاحتفالات العامة، وليس للتأمل والتفكر فى اليوم الآخر وجنات الميعاد التى أعدت للمتقين، كما تعتقد أيضًا أن

سابقة ضم المدافن والأضرحة هى التى جلبت البعد الروحى والدينى إلى حدائق المسلمين فى الأندلس بعد أن كانت حدائق قصور للمتعة الدنيوية للملوك والأمراء.

وعمومًا فسيظل الجدل دائرًا بين الباحثين فى حقل الحديقة الإسلامية وتاريخ تطورها، خاصة فيما إذا ارتبطت الاستعارة الفنية والإبداع الرمزى لحدائق المسلمين فى الأندلس وما تذخر به آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ من تصوير لجنات الخلد فى الدار الآخرة أم أن هذا التأثير قد ظهر بعد حقبة معينة من الزمن وبالتحديد مع بداية القرن العاشر. ولا شك أنه من الصعب أن نجزم برأى محدد أو قول فاصل فى هذه المسألة خاصة وأن اللفظ المستعمل فى كثير من أدبيات اللغة العربية وهو «جنة» ومن الصحيح استعماله لفردوس الآخرة أو حدائق الأرض.

وعمومًا فإنه من النادر فى الأزمنة السابقة أو حتى فى عصرنا هذا أن يدون المصمم أو الفنان خطوات صنع القرار أو المؤثرات التى دعته للإقدام على تشكيل فنى بصورة أو بأخرى.

وسواء فهمنا دوافع الفنان والمصمم فى يوم من الأيام أم لم نفهم فستظل ذكريات الحديقة الإسلامية فى القلوب والأرواح كومضات من الجمال الشاعرى وكمكان للاستجمام الهادئ والتأمل المستغرق، حيث يستمتع المرء فيه بنسمات الأمسيات العطرة وخرير المياة الناعمة وتغريد الطيور المحلقة ومشاهد الأشجار وألوان الزهور، ولكن أولًا وأخيرًا فستبقى الحديقة الإسلامية مصدرًا لتأملات العابد فى إبداعات الخالق، ومنبعًا لإلهام الفنان، وواحة لسكينة الإنسان على مر العصور وفى شتى أقاليم المعمورة.